— ٩ —

الشـــعر

الشوقية الجديدة

لغيرى أن يمدح شوقى بلا حساب . أماأنا فلا أريد أن أمدح ولاأريد أن أذم . وانما أريد أن أنقد وأن أوثر القصد فى هذا النقد ، وأظن أن شوقى يؤثر النقد المنصف على الحمد المسرف . وأظن أنى أجل شوقى وأكبره والنقد أكثر من اجلالى اياه بالتقريظ والثناء ، فقد شبع شوقى ثناءآ وتقريظاً ، وأحسبه لم يشبع نقداً بعد . وليس شوقى فيما أعلم منه شرها الى حسن الحديث وطيب القالة . وهو لم ينشىء شعره لذلك وانما هو شاعر يحب الشعر للشعر وينشىء الشعر لأنه يجد فى نفسه عواطف يحب أن يضعها ، واحساساً يحب أن يذيعه . هو شاعر لأنه يشعر وليس هو بالشاعر لأنه يريد أن يتكلم لا أكثر ولا أقل .

أنا اذن واثق بأنى لن أغضب شوقى اذا نقدته ، وربما أغضبته اذا غلوت فى الثناء عليه ، على أنى لست فى حاجة الى هذه المقدمة الطويلة . فقد لا يسهل على ولا ييسر لى نقد

هذه القصيدة الجميلة التى نشرتها علينا «الاهرام» صباح اليوم .

نعم قد لا يسهل نقد هذه القصيدة ، وقد يضطر الناقد الى أن يتلمس فيها العيب ، ويبحث فيها عن مواضع الضعف ، وقد لايجد شيئاً بعد طول التلمس والبحث فيقف من شوقى لا موقف الناقد بل موقف المداعب . وهل تظن أن مداعبة شوقى ضئيلة الخطر أو قليـــلة القيمة ؟ لا أقول كما قالت « الأهرام » إن قصيدة شوقى هذه هى درة الشعر والنظم : وإنما أقول إنها قصيدة من قصائد شوقى فيها الكثير الجيد وليست تخلو من الردىء ولشوقى بحمد الله قصائد أمتن لفظا وأرصن أسلوبا وأحسن فى النفس موقعاً ، وأرفع معنى من هذه القصيدة .

لا أستطيع أن أتخذ هذه القصيدة مقياساً لشاعرية شوقى وحسن غوصه وفوزه بالمعنى الجيد وحسن أدائه فى اللفظ الرشيق. لا أستطيع ذلك وقد قرأت فى الشباب شعر شوقى فى الشباب فوجدت فى هذه القراءة لذة لم أجدها فى قراءة شاعر عصرى آخر . ليست هذه القصيدة آية من آيات شوقى، وانما هى قصيدة من قصائده الجيدة ، ولعلك اذا أردت أن تتلمس مصدر ما فى هذه القصيدة من جودة لم تتجاوز شيئاً

واحداً ، وهو أن شوقى لم يتكلف فى هذه القصيدة لفظاً ولا معنى ، وانما شعر وأحس وجرى قلمه بما أحس وماشعر . وليس هذا بالشيء القليل ولعل هذا هو كل شيء .

اقرأ هذه القصيدة من أولها الى آخرها تشعر بما يشعر به شوقى وتحس مايحسه شوقى . وبم شعر شوقى ؟ وماذا أحس شوقى حين تناول القلم فكتب هذه القصيدة ؟ شعر بشيئين يشعر بهما كل مصرى ، ولكن شعوراً غامضاً لايتبينه فى نفسه ، ولايستطيع أن يبينه للناس . أحدهما أن لتاريخ مصر القديم مجد وعظمة . والثانى أن تاريخ مصر الحديث فقير الى هذا المجد والى هذه العظمة . بهذا يشعر كل مصرى وبهذا شعر شوقى . ولكن كل مصرى لايستطيع أن يبين هذا كما بينه شوقى ، ولاأن يذهب فيه مذاهب القول التى ذهبها شوقى .

فانظر اليه كيف ابتدأ قصيدته بمناجاة الشمس ، فأخذ يسألها ويستوحيها ويحسن سؤالها واستيحاءها . وأخذت هذه الشمس تجيبه فتحسن الجواب وتلهمه فتجيد الالهام :

قفى يا أخت (يوشع) خبرينا
احاديث القرون الغابرينا

وقد وقفت أخت (يوشع) تخبره أحاديث القرون

الأولين فى أعذب لفظ وأسلسه . وأجمل أسلوب وأرقه دون أن تتصف به أو تثقل عليه ، دون ان تضل به فى هذه القرون القديمة الكثيرة العميقة ، التى لايحصى لها عد ولا يسبر لها غور . وقفت أخت يوشع فحدثته أوقل إنها ألهمته فرد عليها حديثها . أو قل انها انابته عنها فتحدث الى الناس بلسانها ، فأحسن الحديث وأجاد الترجمة .

زعموا أن المأمون كان ينشد قول أبي نواس :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت

له عن عدو فى ثياب صديق

وكان يقول لو أن الدنيا تكلمت فوصفت نفسها لما بلغت ما بلغ هذا الشاعر ، أفتظن أن الشمس لو تكلمت فوصفت مابينها وبين الحياة من صلة ، وألقت على الناس موعظتها الحسنة فى غير اسراف ولاغلو ، فى غير تكلف ولا تعسف كانت تقول أحسن من هذا ؟

مشيت على الشباب شواظ نار

ودرت على المشيب رحى طحونا

تعينين الموالد والمنايا

وتبنين الحياة وتهدمينا

فيالك هرة أكلت بنيها
وما ولدوا وتنتظر الجنينا

أليس هذا حقاً ؟ أليس هذا بريئاً من كل سقم لفظى أو معنوى ؟ أليس هذا واضحاً يفهمه كل عقل ؟ أليس هذا عذباً يسيغه كل ذوق ؟ أليس هذا يسيراً يسيراً ؟ أليس هذا عسيراً ؟

ولكن الشاعر أراد أن ينتقل من هذه الحكمة البالغة ، والعبرة العامة الى موضوعه الذى عمد اليه ، ويخيل الى أنه لم يوفق الى حسن الانتقال

أأم المالكين بنى (أمون)
ليهنك أنهم نزعوا (أمونا)

لست أدرى لم أجد شيئاً من الصعوبة فى إساغة هذا البيت ؟ ويخيل إلى أنه لو أسيغ لكان عسير الهضم . ولعل مصدر هذا اسم (أمون) الأعجمى الذى وقع موقعاً فيه شىء من الحرج فى هذه الصفحة العربية النقية ولعل مصدر هذا بنوع خاص هذا الفعل الغريب الذى تكلفه الشاعر تكلفاً ، أو اضطر اليه اضطراراً وهو (نزعوا) يستعمله الشاعر بمعنى (أشبهوا) ويمر به القارىء فلا يفهمه ويضطر

الى أن يعطف على هذا الشرح الذى اضطر الشاعر نفسه الى أن يضمه . ولعله كان يستطيع أن يجد فى سعة اللغة وثروتها مخلصاً من هذا الحرج . وفرجاً من هذا الضيق فلا يقف ليشرح ولا يضطر القارىء الى أن يقف فيقرأ الشرح . وهبه انشد قصيدته إنشاداً ولم ينشرها فى « الاهرام » أتراه كان ينشد هذا البيت ثم يقطع الانشاد ويعمد الى هذا اللفظ الغريب فيفسره لسامعيه؟ ومالنا نحزن ونحن نستطيع أن نسهّل وما لنا نعسّر ونحن قادرون على التيسير .

ولعل الشاعر يعذرنى أيضاً إذا لم يعجبنى هذا البيت .

ولدت له (المآمين) الدواهى

ولم تلدى له قط (الأمينا)

فلفظ (المآمين) فيه نبو . ولفظ (الدواهى) يبعث الاشمئزاز فى النفس ، ولفظ (قط) يخلو من كل جمال شعرى . والبيت كله غامض برغم هذه الحاشية التى أضافها الشاعر . والبيت كله مخالف للحق فليس من الحق فى شىء أن ملوك مصر جميعاً كانوا كالمأمون ، وليس من الحق أنه لم يكن بينهم من أشبه الأمين . على أنى أبحث عن هذا الشبه فلا أجده وأكاد أخشى أن يكون الشاعر قد ظلم الأمين كما ظلمه

القصاص والرواة .

ثم مضى الشاعر فى لفظ سهل ، ومعنى ليس بالغريب ولا بالمبتذل ، الى ان قال فأجاد اللفظ والمعنى :

تعالى الله كان السحر فيهم
أليسو للحجارة منطقينـــا ؟

واستأنف مضيه ليس بالجيد ولا بالردىء الى أن انتهى الى الخلود ، فأحسن وصفه وأجاد التعبير عنه ولا سيما حيث يقول .

وأخذك فى فم الدنيـا ثناء
وتركك فى مسامعها طنينـا

وان كنت أجد لفظ (الطنين) قلقاً فى موضعه ضعيفاً كل الضعف غير ملائم لصدر البيت ، انظر الى هذا الصدر تجده فخما ضخما واسعاً رائعاً (وأخذك فى فم الدنيا ثناء) ثم انظر الى عجز هذا البيت تجده خاملا ضئيلا نحيفاً ، وهل تستطيع ان تضع (الطنين) بازاء هذا الثناء الذى ينطق به فم الدنيا ؟ وأين يقع الطنين هذا الصوت النحيل من هذا الثناء ثناء الدنيا الذى لاحد له ؟

فناجيهم بعرش كان صنواً
لعرشك فى شبيبته سنينا

فهو لايخلو من مسحة شعرية .

ولكنى اعتذرالى الشاعر اذا استثقلت هذا البيت الذى نظمت فيه أسماء الفراعنة نظم الخرز

وتاج من فرائده (ابن سيتى) و (مينا)
ومن خرزاته (خوفو) (ومينا)

وليس اجمل من اعتذاره عن قدماء المصريين ودفعه عنهم تهمة الظلم ومن استشهاده بظلم (البستيل) وذكره بنوع خاص ظلم القسس فى بناء البيع التى هى مأوى العدل والرحمة ، فنى ذلك على جماله الشعرى بر يملأ النفس حنانا . وان كنت أكره وصف عيسى بشافى العمى . وأظن ان قد كان للشاعر منصرف عن هذا اللفظ الثقيل المبتذل .

فأما قوله (اخا اللوردات) فليس من شوقى فى شىء . وليس من شوقى فى شىء وضعه هذا الاسم الأعجمى (كرنارفون) موضع القافية وجميل وصفه للورد وثنائه عليه وعظته إياه . ولكن أجمل من هذا كله اعتذاره الى اللورد من غضب الغاضبين واشفاق المشفقين . فى هذا

الاعتذار تلطف باللورد ، وحنان على مصر يحسن شوقى وحده تأديتهما :

رأيت تنكرا وسمعت عتباً فعذراً للغضاب المحنقينا
ابوتنا وأعظمهم تراث نحاذر أن يؤول لآخرينا
ونأبى أن يحل عليه ضيم ويذهب نهبة للناهبينا
سكت فحام حولك كل ظن ولو صرحت لم تثر الظنونا

هذه الأبيات تعدل آلاف المرات ما كتب الكتاب الى اللورد كارنارفون من لوم وعتب ومن شكر واعتذار .

ثم عطف الشاعر على الانجليز فرماهم بسهم أصاب منهم المقتل ، وأحسن الدفاع عن المصريين ، وذلك قوله فى لطف وخفة روح :

أمن سرق الخليفة وهو حى يعف عن الملوك مكفنينا

وان كانت كلمة (مكفنين) لاتعجبنى . وقد أحسن الشاعر مناجاة خليليه ومناجاة فرعون ووعظ فأبلغ العظة . ولكن انتقاله من وادى الملوك الى لوزان لايخلو من غرابة ، وربما كانت هذه الغرابة نفسها مصدر شىء من الجمال كثير . وان كنت أشك فى أن وفود لوزان شغلت بفرعون كما يخيل الى الشاعر . ولكن الحكومة المصرية خليقة أن تقرأ وخليقة

أن تتعظ ؛ وخليقة أن تعمل .

اتعلم أنهم صلفوا وتاهوا وصدوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا نجر هنا سيفا وجدنا عندهم عطفا ولينا
سيقضى (كرزن) بالامر عنا وحاجات (الكنانة) ماقضينا

فهل ترى أبلغ من هذا البيت فى وصف الألم واللوعة لقضاء سينالنا دون أن يكون لنا فى أمره شيء ؟

ولقد أعجز العجز كله إن أردت أن أصف لك جمال هذه القطعة الصافية المتلألئة من قصيدة شوقى . هذه القطعة التى يتحدث فيها الشاعر الى فرعون فيسأله ويستنطقه بالحكمة العالية والموعظة الحسنة ويضع أمامه هذه الألغاز التى عجز العقل والوجدان عن حلها : ألغاز الحياة والموت . ألغاز البعث والنشور . ألغاز الصلات الاجتماعية بين الناس .

ثم ينتقل الشاعر أحسن انتقال ، يثب ويخيل اليك أنه يخطو . يثب من عصر الفراعنة الى العصر الذى نعيش فيه . فتراه شاعراً مصريا يعيش فى هـــذه السنة يحس مانحس ، ويشفق مما نشفق منه . يحب الدستور ويكلف به ، ويتمنى على صاحب الجـــلالة فى ألذ لفظ وأعذبه وفى أمتن أسلوب وأصفاه فى أشد العبارات تمثيلا لأصدق العواطف . يتمنى

على صاحب الجلالة اصدار الدستور :

زمان الفرد (يافرعون) ولى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا
(فؤاد) أجل بالدستور ملكا ... وأشرف منك بالاسلام دينا
بنى (الدار) التى لاعز إلا ... على جنباتها للمالكينا
ولا استقلال إلا فى ذراها ... لمتبوع ولا للتابعينا
ترى الأحزاب مالم يدخلوها ... على جد الحوادث لاعبينا
إذا سارت به أيد شمالا ... أتت أيد فسرن به يمينا
فعجل يا (ابن اسماعيل) عجل ... وهات النور واهد الحائرينا
هو المصباح فأت به وأخرج ... من الكهف السواد الغافلينا

ذلك ما أحسه شوقى أمام تاريخ مصر القديم، وهذا ماقاله عن الدستور أما ما قاله حافظ فقد نعرض له فى مقال آخر.

— ١٠ —

النظم

قصيدة حافظ الأخيرة

كل شعر نظم ، وليس كل نظم شعراً . وقد يشعر الناظم وينظم الشاعر . بل الشاعر ناظم دائماً . وليس الناظم شاعراً فى كل وقت .

ولست أشك ولا يشك أحد فى أن حافظاً قد شعر كثيراً فأجاد الشعر وأحسنه . ولست أشك ولعل حافظاً لا يشك أيضاً فى أنه كان ناظماً فى الأسبوع الماضى حين أنشد بين يدى صاحب الجلالة هذه القصيدة التى لم أكن أريد أن أعرض لها لولا أن شوقى تكلم وتناول فى قصيدته التى نقدتها أمس موضوعاً تناوله حافظ ، وهو الدستور :

نعم لم أكن أريد أن أعرض لقصيدة حافظ لأنها لم تبعث فى نفسى ميلا إلى أن أصفها بخير . ولعلها بعثت فى نفسى ميلا إلى أن أنقدها وإلى أن أكون شديداً قاسياً فى هذا النقد .

وقد استطعت أن أؤثر اللين على الشدة وأعدل عن

القسوة إلى الرفق لأن بينى وبين حافظ صلات مودة دعتنى او اكرهتنى على ان اميل مع الهوى فأكتم حقاً كان يجب أن لا يكتم .

وأنا أعتذر من هذا الصمت إلى حافظ أولا ، والى القراء ثانياً ، والى الأدب بعد حافظ والقراء .

أعتذر الى حافظ من هذا الصمت فأنا أعلم أن النقد صنيعة يسديها الناقد الى الكتاب والشعراء . لأن هؤلاء الكتاب والشعراء يستفيدون من النقد أكثر مما يخسرون . يعرفون رأى الناس فيما يكتبون ويقولون ، وليست هذه المعرفة قليلة الفائدة . يعرفون رأى الناس ويعرفون رأى الاخصائيين . فيقفون على مواضع القوة والضعف فى فصولهم وقصائدهم فينفعهم هذا ويزيدهم قوة ، الى قوة ، ويعصمهم من السقوط والاسفاف . ثم فى النقد اقرار للحق فى نصابه ودفاع عن الفن وتبصرة لما فى الآثار الفنية من جمال أو عيب .

ولست أريد أن أدافع عن النقد ولا أن أثبت أنه حق وانه نافع ، فالناس لاينكرون ذلك ولا يشكون فيه .

ولست أريد أن ازعم أن حافظا ينكر على الناس أن ينقدوه ، فليس فى ذلك شك وكثيراً مادعا حافظ أصحابه

وخصومه الى نقده ودلالته على مواضع ضعف ومواطن نقص فى قصائده قبل أن تنشر ، وبعدأن تنشر على الجمهور.

إذاً فقد كان من الحق علىَّ لحافظ أن أنقده ولكن سكت فقصرت فى ذات حافظ وأنا مصلح اليوم هذا التقصير .

وقد كان من الحق على للقراء أن انقد حافظاً ، حتى لا يخلط كثير منهم بين جيد هذا الشاعر وهو كثير . وبين رديئه وهو قليل . ولكنى سكت وأنا مصلح اليوم هذا السكوت .

وقد كان من الحق على للأدب أن انقد حافظاً حتى لايضاف الى الشعر ماليس منه ، ولا يحسب على الفن أثر ليس من آثاره فى شىء . وللأدب على أهله حق المراقبة والنصح وليس يعذر المقصر فى هذا الحق لأن الأدب يحيا من انتاج الشعراء والكتاب كما يحيا من اصلاح النقاد لآثار الكتاب والشعراء . فكما أن سكوت الكتاب والشعراء عن الكتابة والشعر إماتة للأدب أيضاً . وقد أعرضت عن نقد هذه القصيدة ، وأنا مصلح الآن هذا الاعراض .

ولو أنك أردت أن تتبين دخيلة نفسى لقلت لك بعد أن ترددت اسبوعا إن هذه القصيدة لاينبغى أن تحسب على

حافظ ولا أن تضاف إليه . لأن حافظاً قد قال من الشعر ونظم من القصائد ماملك القلوب وخلب العقول واستأثر بالألباب ماليس إلى نسيانه من سبيل . ويخيل إلى أن اضافة هذه القصيدة إلى هذا الشاعر المتقن إساءة إلى إتقانه ، وأن وضع هذه القصيدة بين قصائده الجياد ازراء لهذه القصائد . وأحسب أن حافظاً يحسن الإحسان كله إذا لم يضع هذه القصيدة فيما سينشر من أجزاء ديوانه ، فليس لها موضع فى هذا الديوان .

بحثت عن الشعر فى هذه القصيدة فلم أجد شيئاً ، وأنا أزعم أن ليس من النقاد من يستطيع أن يجد ما عجزت أنا عن الوصول إليه ، بل أزعم أكثر من هذا ، بل أزعم أن حافظاً عاجز نفسه عن أن يجد شيئاً من الشعر فى هـــذه القصيدة ، وما أشك فى أنه فيما بينه وبين ضميره مقتنع بهذا الرأى مطمئن إليه .

لقد قرأت القصيدة وقرأتها . ورددت أبياتها ، رددتها وسألت فيها كل بيت ، بل كل شطر ، بل كل كلمة عن شىء من جمال الشعر أو قليل من روعة الفن فلم أوفق إلى شىء .

ولست آسف لأن حافظاً لم يجد فى هذه القصيدة ، فقد

يرتفع الشاعر وقد يهوى وقد يعلو الفنى وقد يسقط . ولئن لم يوفق حافظ فى هذه القصيدة إلى الإحسان فقد وفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة ، وقد يوفق إليه فى قصائد أخرى كثيرة . وإنما آسف لأن حافظاً سكت عصراً طويلا أطول مما ينبغى أن يسكت الشاعر ، ولما قال لم يحسن القول . وما مصدر هذا ؟ وما أصله ؟ وعلى من تقع التبعة ؟ أحق أن العصر الذى نعيش فيه ليس عصر شعر ولا فن ؟ وإن انصراف الناس عن الشعر والفن إلى هذه الحياة ، وإلى هذه الحياة السريعة العملية التى تنهم القوى وتسئم النفوس قد ثبط من هم الشعراء والكتاب وصرفهم عن الشعر إلى النظم ، وعن النثر الرائع الجميل إلى هذه الكتابة المألوفة التى تقرؤها فى كل يوم . قد يكون هذا حقاً ، وقد لا يكون . ولكن هناك حقاً لا شك فيه وهو أن الشعر الجيد فى هذا العصر قليل لا يكاد يوجد ولا يعثر به . وهذه القلة نفسها هى التى بعثتنا إلى أن نعجب أمس بقصيدة شوقى ، مع أنها كما قلنا لا تفوق غيرها من قصائده .

الشعراء إذاً مكرهون على أن يسكتوا لأن فى حياتنا الاجتماعية شيئاً يضطرهم إلى السكوت ، وقد يكره الشعراء

على أن يتكلموا فيتكلمون . لكن أى قيمة لشعر مصدره الاكراه !

فالشعر الجيد يمتاز قبل كل شيء بأنه مرآة لما فى نفس الشاعر من عاطفة . مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلا فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فاذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وانما هناك نظم لا غناء فيه . ولست أدرى أخلت نفس حافظ من العاطفة القوية أم عجزت هذه العاطفة عن أن تجرى لسان حافظ بالشعر الجيد ولكنى أعلم أن ليس فى هذه القصيدة من هذا الشعر شيء .

أول مايؤذيك حين تقرأ هذه القصيدة خلو أبياتها جميعاً من كل معنى رائع أو تصور بديع . فانك تنتقل من البيت الى البيت فلا تجد إلا ألفاظاً مرصوفة وكلماً منظومة يتلو بعضها بعضاً ، وتدل على معانيها اللغوية لاأكثر ولاأقل فاذا عمد الشاعر إلى التشبيه أوالمبالغة أو أى حيلة من هذه الحيل اللفظية التى يخلص الشعراء بها من المازق لم يجد إلا الفاظاً مألوفة ومعانى كثيراً ماردداها الشعراء ، وطرقاً من التعبير قد سئمها الناس .

فانظر اليه حين أراد أن يقول إن صاحب الجلالة قد رفع شأن الأزهر الشريف ، حين زاره كيف لم يستطع أن يقول إلا شيئاً عادياً مبتذلا يردده الناس جميعاً ، ويسمعه الناس جميعاً ، فلا يجدون فيه غرابة ولا لذة ، فقال :

قضيت به الصلاة فكاد يزهى
بزائره على ركن الحطيم

فهل تجد فى هذا البيت معنى طريفا أو وصفاً رائعاً ؟ وهل تجد فى هذه المبالغة شيئاً من الجمال ؟ وانظر الى مبالغة أخرى كيف أساء الشاعر أداءها ، فقال يريد أن يصف قوة النهضة المصرية ، وأن يستنبط هذه القوة من شدة الخمول القديم :

أفقنا بعد نوم فوق نوم
على نوم كأصحاب الرقيم

فهل تجد جمالا أو شعراً فى كثرة هذا النوم ؟ أليس يذكرك هذا البيت بيتاً مثله قديماً وهو قوله :

فما للنوى جذ النوى قطع النوى
كذاك النوى قطاعة لوصالى

سمع الأصمعى هذا البيت فقال ، لو سلط الله على كل هذا النوى شاة فأكلته !

فماذا عسى أن نقول فى نوم حافظ ! وهل تجد لأصحاب الرقيم هنا موضعاً يلائم قصيدة حافظ . أليس الناس جميعاً يذكرون الكهف وأصحاب الكهف ونوم أصحاب الكهف؟ وانظر إلى مبالغة ثالثة أساء فيها حافظ الاساءة كلها حين أراد أن يذكر اغتباط مصر إذ صدر الدستور :

فيا مصر اسجدى لله شكراً

وتيهى واقعدى طربا وقومى

(إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها) أجاب حافظ : صدر الدستور ! وإلا فهل ترى مصر تتيه وتقعد وتقوم طربا دون أن يكون هناك زلزال ؟ . ثم قوله (اسجدى لله شكراً) وماذا ترك للعامة ؟ ومثل هذه المبالغات التى تخلو من كل روعة . ومثل هذه الألفاظ التى ابتذلت على ألسنة العامة كثير فى القصيدة ، وفى الحق أن ابتذال الألفاظ من أشد عيوب هذه المنظومة فانظر إلى قوله :

فقد تم البناء وعن قريب

تزف لك البشائر من (نسيم)

أليس من كلام الأسواق ؟ أليس غريباً أن يكون هذا

الكلام من آثار حافظ الذى استعمل أشد ألفاظ اللغة غرابة وأكثرها وحشية فى كتاب البؤساء . الذى استعمل (مسلاخ الشَّرْة) وما يشبه (مسلاخ الشرة) من غريب الألفاظ وهل عجز حافظ عن أن يتخير متين الكلام ورصينه فى غير وحشية ولا ابتذال . وانظر إلى هذا البيت الذى ربما خيل إلى الشاعر أنه خفيف الروح :

أيأذن لى المليك البَرُّ أنى
أهنىء مصر بالأمر الكريم

أترى فيه لفظاً من ألفاظ الشعر أو معنى من معانى الشعر ومن أشد عيوب هذه القصيدة أن قوافيها غير مستقرة فى مواضعها . فقد تجد هذه القافية قلقة مضطربة وتشعر بأنها لم تأت إلا لأن الشاعر قد احتاج إليها ، لم يدعها المعنى وإنما دعاها التكلف . انظر إلى هذا البيت :

رأى فيك (المعز) زمان أعلى
قواعده على ظهر الأديم

ما تقول فى (ظهر الأديم) وقد أراد الشاعر أن يقول الأرض بل لم يرد أن يقول شيئاً إلا فى (المعز) رفع قواعد الأزهر . ولعل قواعد المساجد والعمارات لا ترفع على ظهر

الهواء وانظر الى هذا البيت :

فشرفها بركبك وافتتحها

وأسعدها بدستور تميم

فانظر الى (تميم) هذه ، أليست نابية فى موضعها؟ أليست تذكرك قول العامة (دستور تمام) ثم ما (شرفها بركبك) هذه ؟ وما (افتتحها) ؟

وانظر الى قوله :

فدار البرلمان أعز دار

تشاد لطالب المجد الصميم

أليس (المجد الصميم) لفظاً دعت إليه القافية ؟ وهل تجد للصميم هنا فضلا على الطريف أو التليد أو الأثيل ؟ .

وانظر الى قوله :

بها يتجمل العرش المفدى

وتحيا مصر فى عيش رخيم

أترى إلى (العيش الرخيم) ألست تجد فيه أثر التكلف؟ ثم أليس فى (الرخيم) شىء من الأنوثة قد لايليق بهذا المقام؟ ثم ما قيمة البيت فى نفسه إذا قرأت بعده قول شوقى :

بنى الدار التى لاعز إلا على جنباتها للمالكينا

وقد ذكرت شوقى ، وكنت أرد ألا أذكره الآن ! فان الموازنة بين ما قال فى الدستور ، وبين ما قال حافظ فى الدستور أيضاً مرّة ، مؤلمة النتيجة . تقرأ أبيات شوقى فلا تشك فى أنه يصف ما يشعر به وما تشعر به أنت أيضاً . وتقرأ أبيات شوقى فتجد فيها المعانى الغالية القيمة ، قد أديت فى اللفظ العذب الرشيق . ليس فيها للبحث أثر ولا للتكلف مظهر . فاذا قرأت أبيات حافظ لم تجد شيئاً . وانما آذتك ألفاظ متكلفة وقوافٍ نزلت فى غير منازلها ، وأكرهت على أن تستقر حيث لاتحب .

لأمر ما أبت شياطين الشعر أن تسعد حافظاً فأخلفنا فى هذه المرة ، ولكنا لانيأس من لقاء حافظ ، ومن لقائه فى وقت قريب !

— ١١ —

شعراؤنا ومترجم أرستطاليس

ربما كان أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد أوفر كتاب هذا العصر ومؤلفيه حظاً من السعادة وأحقهم بالغبطة والرضا ، فما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً ظفر بمثل ماظفر به الأستاذ من هذا الثناء المتصل والاعجاب الذى لاحدله ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أكره خصومه وأصدقاءه على أن يحمدوا له عمله فى غير بخل ولا تقتير ، وما أعلم أن كاتباً أو مؤلفاً مصرياً فى هذا العصر أجرى أقلام الكتاب بحمده وتقريظه، وأطلق ألسنة الشعراء بمدحه وإطرائه كما فعل الأستاذ لطفى السيد حين أذاع فى الناس ترجمته لأخلاق أرستطاليس ، فقد أجمع الكتاب على اختلاف أهوائهم ومذاهبهم وعلى افتراقهم فى حب الأستاذ والانصراف عنه على حمده وتقريظه ، وشكر ماقدم الى اللغة العربية من خير بترجمته هذا الكتاب ، وليس يعنينا ماكتب الكتاب من رسائل وفصول نشرتها الصحف

وقرأها الناس ، وانما الذى يعنينا هو هذا الشعر الذى أطلق به الأستاذ ألسنة الشعراء وأى الشعراء ! شوقى وحافظ ونسيم . فاذا كان من الحق علينا أن نقدم الى الأستاذ تهنئتنا الخالصة بهذا الثناء الطيب الذى هو أهل له ولخير منه ، واذا كان من حقنا أن نثبت فى هذا الفصل أننا لم نكن مخطئين فيما قدرناه يوم كتبنا عن الأستاذ وعن ترجمته لأرسطاليس من أن ظهور هذا الكتاب حادث أدبى ليس كغيره من الحوادث .

نقول اذا كان هذا كله من حقنا فقد يكون من حقنا أيضاً أن نقف عند هذه القصائد الثلاث التى أنطق الشعراء بها كتاب الأخلاق لأرسطاليس لنتبين وجهاً من وجوه القوة الشعرية فى هذا العصر عندنا بعد أن بينا فى الفصول الماضية شيئاً من وجوه الحياة الأدبية فى هذا العصر وأنا أعلم حق العلم ان من الاسراف ان نحكم على القوة الأدبية فى هذا العصر بكتاب مهذب الأغانى وتهذيب الكامل وبلاغة العرب فى الأندلس . واعلم كذلك حق العلم ان من الاسراف والظلم أن نحكم على قوة الشعر فى هذا العصر بهذه القصائد الثلاث التى أنشأها شوقى وحافظ ونسيم فى مدح الأستاذ لطفى السيد وترجمته لأخلاق أرسطاليس ، أعلم أن هذا اسراف وظلم

فان لشوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الشعراء قصائد أخرى قيمة ذهبوا فيها مذاهب مختلفـــة من الجد والهزل فيها لذة للنفس ، ومتعة للقلب ، ورضا لمن يحب النقد . ولهذا أحب أن يلاحظ القارىء أنى لا أتخـــذ هذه القصائد عناوين لشعرائها ولا مقاييس لحظوظهم المختلفة من الاجادة والاساءة ، ومن السمو والاسفاف ، وإنما هى فرصة نتحدث اليك فيها عن هؤلاء الشعراء وعن بعض أنحائهم فى الشعر ومذاهبهم حين يعمدون اليه ، وليس من شك فى أنى لا أبخل بالثناء الطيب العذب على هؤلاء الشعراء جميعاً ، فهم حين انشأوا قصائدهم هـذه لم يستجيبوا إلا لعاطفة شريفة قيمة هى عاطفة الانصاف وإكبار من يستحقون الاكبار ، والوفاء لمن هم أهل للوفاء . وليس هذا فى نفسه بالشىء القليل ولا سيما بالقياس الى الشعراء . وأنت تعلم أن الأستاذ لطفى السيد على جلال خطره وعلو مكانته فى أمته ليس هو بحيث يستطيع أن يهتز ثناء الشعراء أو يتملق آلهة الشعر وما كان ذلك من شأنه ولا من أخلاقه ، فشعراؤنا اذن صادقون غير متكلفين ، مخلصون غير متصنعين فيما قدموا الى الأستاذ من مدح وفيما أهدوا اليه ، ومن ثناء بل أنا لا أبخل على شعرائنا الثلاثة بشىء

من الثناء غير قليل لما وفقوا اليه من الوجهة الفنية الخالصة فكلهم قد وفق الى شيء من الاجادة لا بأس به ، وكلهم قد جد فى تخير الألفاظ واتقان النظم وإحكامه واقرار القافية فى نصابها فوفق من هذا كله الى الشيء الكثير ، وكلهم قد اجتهد فى الغوص على المعانى ـ كما يقولون ـ وتلمس الغريب الطريف منها فلم يخطئه الحظ ولم تفته الطلبة وانما عاد بشيء يمكن أن يحصى بين الحسنات الشعرية ، على أنى أستأذن شعراءنا وأستأذن من قبلهم أستاذنا لطفى السيد فى أن أكون حراً حين أنقد هذه القصائد ، فقد تعودت هذه الحرية وحرصت عليها وأكبرتها عن أن أضحى بها فى سبيل انسان مهما تكن منزلته من الناس ومنى ، ولو كان هذا الانسان هو الأستاذ لطفى السيد أو شوقى أو حافظاً أو نسيما .

أريد أن أكون حراً ، واذن فأنا معتذر الى شعرائنا الثلاثة اذا لاحظت أنهم جميعاً قد عرضوا لذكر أرستطاليس ومدحه والاشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً . نعم ذكروا أرستطاليس ومدحوه وهم يجهلونه ويجهلون آثاره وأرجو أن يصدقونى ـ وهم يصدقوننى ـ اذا قلت إنهم يجهلون حتى كتاب

الأخلاق الذى أنشأوا من أجله هذه القصائد ، وما أظن أن علمهم بهذا الكتاب يتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، وما أحسب أنهم جميعاً قرأوا هذه المقدمة وأحاطوا بما فيها حقاً ، وهنا أتردد بين العتب والثناء فقد يكون مما يستحق الثناء والاعجاب أن يعمد الشاعر الى موضوع لا يدركه ولا يحيط بدقائقه وأسراره فيقول فيه شعراً لا يخلو من جودة ولا يبرأ من احسان ، ولكنى ثقيل ملحاح ، شديد الطمع مسرف فى الحرص على المثل الأعلى ، فأنا لا أرضى لشعرائنا الجهل ، ولا أحب لهم ان يعرضوا للأشياء الا اذا اتقنوها اتقانا ، وظهروا على دقائقها وأسرارها حقاً . وقد أفهم أن يقول الشعراء مالا يفعلون ، ولكن لا أفهم أن يقول الشعراء مالا يعلمون ، ولست أرى أنى أغلو فى ذلك أو أسرف ، فما كان الجهل مصدراً للخير ولا وسيلة للاجادة ولا طريقاً الى البراعة الفنية ، وما رأيك فى مثال يطمع فى ابتكار الآيات الفنية وهو يجهل التشريح ، وما يتصل به من تكوين الجسم الانسانى وما إلى ذلك من هذه العلوم ، التى لا سبيل الى الاجادة الفنية بدونها . إن الاجادة الفنية اذا كانت أثراً من آثار الشعور ومظهراً من مظاهر الحس القوى . والعواطف

الدقيقة والخيال الخصب . فهى لغو اذا لم تستمد غذاءها الحقيقى من العقل والعلم .

وربما كان شوقى أحق الشعراء الثلاثة بأن يعاتب فى هذا الموضوع . نعم هو أحقهم بالعتب فهو من بينهم قد تعلق بأرستطاليس وأراد أن يشيد بذكره ويرفع من شأنه ، وخص له فى قصيدته أكثر مما خص للأستاذ المترجم ، ولعلك تدهش ، ولعل شوقى نفسه يدهش اذا قلت لك وله إنه لم يمدح أرستطاليس وانما مدح أفلاطون !.. نعم ، أراد عمراً وأراد الله خارجة ! ولكنه أراد عمرا بالخير فانصرف هذا الخير عن عمرو الى خارجة ، لأن الشاعر لم يحسن تلمس السبيل الى عمرو . ولولا أن نفوس الفلاسفة والحكماء رضية بطبيعتها لكان من حق أرستطاليس أن يخاصم شوقى ، وأن ينفس على أفلاطون أستاذه هذا المدح الذى جاءه من حيث لا يحتسب . أراد شوقى أرستطاليس وأراد الله أفلاطون . ولست فى حاجة الى أن أطيل القول فى أن شوقى لم يمدح أرستطاليس ، فيكفى أن تقرأ قصيدة شوقى لترى أنه يصف أرستطاليس بأنه سبق الى التوحيد فأعلنه قبل البنية والحطيم ، وقبل المسيح أيضاً وبأنه كان

قدسى الروح ، وبأن لطفى صدى صوته الرخيم، وبان رسائله كالسلافة إذا جرت فى جسم النديم . واذا كان بين فلاسفة اليونان من سبق الى اعلان التوحيد فليس هو أرستطاليس وربما لم يكن هو أفلاطون ، بل ربما لم يكن هو سقراط أيضاً فقد سبق فلاسفة الى اعلان التوحيد فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولكن الشىء الذى يستحق العناية هو أن هناك فيلسوفا يونانياً يقرن المسيح ، وتعتبر فلسفته أصلا من أصول الديانة المسيحية ومصدراً من مصادرها ، وليس هذا الفيلسوف أرستطاليس وانما هو أفلاطون ، أفلاطون صاحب المثُل ، أفلاطون الذى أمعن فى طلب المثل الأعلى والذى استطاع أن يرقى بالنفس الانسانية والفكرة الالهية الى حيث لم يسبقه ولم يدركه فيلسوف بعد . أما أرستطاليس فقد كان مقصوص الجناح ، أو قل لم يكن له جناح يصعد به فى السماء ، ولهذا لم يصعد أرستطاليس فى السماء ، ولعله لم يرفع بصره الى السماء وإنما خفضه الى الأرض ، ذلك لأنه لم يكن يستوحى الحق من السماء وإنما كان يستنبطه من الأرض استنباطاً . واذا كان هناك فيلسوف تلائم فلسفته الشعر حقاً ، أو قل اذا كان هنـــاك فيلسوف هو الشاعر حقاً فهذا

الفيلسوف هو أفلاطون لا أرسطاليس . ولو عرف شوقى إله آرسطاليس هـذا الاله العاجز الجاهل المفتون بنفسه المنصرف الى جماله عن كل شيء ، الذى لايعلم الا نفسه ولا يفكر الا فى نفسه ولا يعجب الا بنفسه . أقول لو عرف شوقى إله أرسطاليس هذا لرثى لأرسطاليس نفسه ولما استطاع أن يقول :

من كان فى هدى المسيح
وكان فى رشد الكليم
وغدا وراح موحـــداً
قبل البنيـــة والحطيم

كلا ، لم يكن أرسطاليس فى هدى المسيح ولا فى رشد الكليم ، ولم يخطر التوحيد كما نفهمه لأرسطاليس . ولعله لم يخطر لغيره من فلاسفة اليونان القدماء ، ولكن الشيء المؤلم حقاً هو أن يقول شوقى عن أرسطاليس :

ورسائل مثل السلا ف اذا تمشّت فى النديم
قدسية النفحات تســـكر بالمذاق وبالشميم
يالطفِ أنت هو الصدى من ذلك الصوت الرخيم

أى الرسائل يريد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن آثار أرستطاليس تشبه السلافة من قرب أو من بعد ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن فى رسائل أرستطاليس شيئاً قليلا أو كثيراً من هذه النفحات القدسية ؟ ومن الذى يستطيع أن يزعم أن صوت أرستطاليس كان رخيما ؟

أفهم جداً ألا يتعمق الشعراء فى فهم المذاهب الفلسفية ـ وإنما أريد شعراءنا خاصة ـ وأعذر شوقى وغيره إذا خيل اليهم أن توحيد المسيح أو توحيد المسلمين هو توحيد على كل حال، وقد لا يصح أن نلح على شعرائنا فى أن يدرسوا ما بعد الطبيعة ، ويتقنوا مذاهب الفلاسفة فيه ، كما كان يفعل أبو نواس، ولكن الذى لا أستطيع أن أفهمه ولا أن أعذره هو أن يجهل الشعراء وأئمة البيان إلى هذا الحد فيخيل اليهم أن أرستطاليس كان حلو النثر رخيم الصوت قدسىَّ النفحات تشبه آثاره بالسلافة ، صف بهذه الأوصاف كلها أفلاطون فلن تبلغ من وصفه ماتريد ، ولكن لا تصف بها أرستطاليس فكم كد نثر أرستطاليس عقولا وصدع رءوساً ؟ والأستاذ لطفى السيد مع أنه لم يترجم عن اليونانية شهيد بأن نثر أرستطاليس لا يشبه الخمر ولا يشبه العسل ولا يشبه الماء

وليس فيه من النفحات القدسية قليل ولا كثير ، ولكنه نثر عالم قد أتقن لغته ، وعرف كيف يستغلها ويستثمرها ويلائم بينها وبين حاجات العلم والفلسفة . أنت لا تحمد أرسطاليس ولا تحسن اليه بهذه الصفات ، فقد لا يكون من الخير للعالم أن تكون لغته ساحرة فتانة لأن العلم لا يحتمل سحر اللغة وفتنتها . وإنما هو محتاج الى الدقة والى التشدد فى الدقة ، والى أن يسمى الأشياء بأسمائها . ولكنى قد قلت لك إن شوقى أراد أرسطاليس وأراد الله أفلاطون .

على أنى أنتقل من هذا العيب إلى عيب آخر يشبهه ، وقد اشترك فيه شوقى وحافظ ونسيم وغيرهم من الكتاب أيضا ، وهو أنهم لم يقرأوا كتاب الأخلاق ولم يقدروه قدره ولم يفطنوا للغرض من تأليفه ومن ترجمته . فهم قد فتنوا بلفظ الأخلاق ، وخيل اليهم أن أرسطاليس قد قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ألفه ، وأن لطفى قصد إلى إصلاح الأخلاق يوم ترجمه ولعل الرجلين قد فكرا فى شىء من هذا ، ولكنى أستطيع أن أؤكد للشعراء والكتاب أن الغرض الأول من تأليف الكتاب وترجمته علمى لا عملى ، وأن المؤلف والمترجم أراد خدمة الفلسفة قبل أن يفكرا فى الوعظ والإرشاد . وما أظن

أن كتاب أرسطاليس فى الأخلاق يصلح مرجعاً للوعاظ والمرشدين ، وانما هو مرجع حسن لصديقنا الدكتور منصور حين يدرس علم الأخلاق لطلابه فى الجامعة وفى مدرسة الحقوق . وهل أستطيع أن ألفت شوقى الى أنه قد مدح أفلاطون ولم يمدح أرسطاليس حين قال :

يبنى الشرائع للعصور بناء جبار رحيم

فقد يكون أرسطاليس درس السياسة ووضع فى هذا الدرس أصولا قيمة ولكنه لم يبن الشرائع، واذا كان هناك فيلسوف يونانى شرع للناس فهو أفلاطون صاحب القوانين.

كل هذا يدلنا على ما قدمت من أن شوقى لم يدرس أرسطاليس قبل أن يمدحه فلندع هذا العيب الأساسى الى ملاحظات أخرى فنية :

انظر الى هذه الأبيات :

وسريت من شعب الألمب به الى وادى الصريم
فتجارت اللغتان للغايات فى الحسب الصميم
لغة من الاغريق قيمة وأخرى من تميم

ألاحظ قبل كل شىء أنى لو كنت مكان شوقى لما ذكرت الألمب بعد أن زعمت أن أرسطاليس كان على نهج المسيح

وفى رشد الكليم ، فالألمب مستقر الوثنية اليونانية وعلى قمته كان يقوم قصر كبير الآلهة زوس ، وألاحظ بعد هذا أن القافية قد عبثت بهذه الأبيات عبثاً غير قليل ، فما وادى الصريم هذا ؟ وما صلة لطفى السيد بوادى الصريم ، وهو انما نقل أرستطاليس الى وادى النيل؟ وما شأن تميم؟ وهل من الحق أن اللغة التى ترجم الكتاب اليها هى لغة تميم ؟ وهل نعرف لغة تميم حقاً؟ ولم لا تكون لغة قريش فهى لغة القرآن وهى اللهجة العربية الوحيدة التى نعرفها حقا؟ ولكن تميما والصريم ينتهيان بالميم ، وكم كنت أحب ألا يخضع شوقى للقافية هذا الخضوع .

وبعد فان من الجحود والظلم ألا أثنى على هذا البيت القيم الملائم للحق ملاءمة تامة وهو قوله :

لمسوا الحقيقة فى الفنو ن وأدركوها فى العلوم

هذا البيت آية فى الصدق فقد لمس اليونان الحقيقة فى الفن وأدركوها دون أن يلمسوها فى العلم ، أكرر ان هذا البيت آية فى الصدق ومثل جيد للايجاز البديع. وقد أسرف فى الظلم ايضا اذا لم اثن على هذا الجمال اللفظى فى قوله :

العاشقين العلم لا يألونه طلب الغريم

المعرضين عن الصغا ئر والسعاية والنميم

وإن كان لفظ الصغائر لا يعجبنى . وقد يكون من الانصاف أيضاً أن أثنى على هذه الأبيات التى تمثل أنصاف شوق ووفاءه وكرم خلقه :

قسما بمذهبك الجميـ ـل ووجه صحبتك القسيم
وقديم عهد لا ضئيـ ـل فى الوداد ولا ذميم
ما كنت يوماً للكنا نة بالعدو ولا الخصيم
لما تلاحى الناس لم تنزل إلى المرعى الوخيم
كم شاتم قابلته بترفع الأسد الشتيم
وشغلت نفسك بالخصيـ ـب من الجهود عن العقيم
فخدمت بالعلم البلا د ولم تزل أو فى خديم

ولندع قصيدة شوقى إلى قصيدة حافظ ولن يكون موقفنا مع حافظ أشد حرجا ومشقة من موقفنا مع شوقى ، ذلك لأن حافظاً يزعم شيئاً ونحن نزعم شيئاً آخر ، قلنا إن شعراءنا الثلاثة لم يقرأوا كتاب أرستطاليس وما نظن أنهم تجاوزوا مقدمة المترجم العربى ولكن حافظاً يزعم لنا أنه قرأ الكتاب فيقول :

إنى قرأت كتابه بين الخشوع والاعتبار

فاذا المؤلف ماثل جنب المترجم فى إطار
وعليهما نور يفيض من المهابة والوقار

كلا ياحافظ ، لم تقرأ الكتاب ولم تتجاوز مقدمة الأستاذ لطفى السيد ، ولم تر المؤلف والمترجم ماثلين فى إطار وإنما تخيلتهما كذلك وأنزل شعرك عليهما هذا النور الذى تذكره ، وأنا زعيم بأنك لن تجادل ولن تمارى أفيما أقول . فلو أنك قرأت الكتاب حقاً ورأيت الفيلسوفين فى هـذا الاطار يفيض عليهما هذا النور لقلت فيهما كلاماً غير هذا . وهل تريد أن تقنعنى بأن شاعراً مثلك مجيداً غنياً خصب الخيال يستطيع أن يقرأ كتاباً ككتاب أرسطاليس ويتفهمه دون أن يوحى اليه الشعر آية من آيات البيان فى وصف هذا العقل الذى لم تعرف الانسانية مثله بعـد ؟ كلا ، أنت كشوقى لا تعرف أرسطاليس ولم تقرأ ترجمة الأستاذ لطفى ولكنك أحق بالرضا وأقل تعرضاً للعتب من شوقى ، ذلك لأنك ذهبت مذهب أرسطاليس فلم تلتمس ما ليس فى يدك ولم تتجاوز الأفق الذى أنت فيـه ، مدحت لطفى خاصة وتأدبت مع أرسطاليس لا أكثر ولا أقل ، ومن هنا أحسنت فى مدح لطفى احساناً لا بأس به وان لم يقصر عن مثله شوقى

ولكن حدثنى عن هذا البيت :

بكتاب رسطاليس تا ج نوادر الفلك المدار

ألم يثقل عليك ؟ أتحب هـــذه الاضافات ؟ وما معنى نوادر الفلك المدار » ؟ وما معنى تاج هذه النوادر ؟ وما معنى أن يكون كتاب أرسطاليس تاجاً لهـــذه النوادر ؟ أتعرف أنى لا أفهم شيئاً إلا أنك سلكت هذه الطريقة الطويلة لتصل إلى لفظ المدار لتظفر بقافيـــة وتحشر فى القصيدة بيتاً كنت تستطيع أن تزهد فيه ، وكذلك استعبدتك القافية فى قولك :

زن الكلام كأنه ماس بميزان النجار

ثما ميزان التجار ؟ وما الحاجة اليه الا لأنه قافيه ؟

ولكنى أثنى فى غير تحفظ على هذه الأبيات الجيدة حقاً الصادقة حقاً :

قالوا لقد هجر السيا سة وانزوى فى عقر دار

ترك المجـــال لغيره ورأى النجا مع الفرار

لا تظلموا رب النهى وحذار من خطل حذار

هجر السياسة للسيا سة لا لنوم أو قرار

لو أنهم علموا الذى يبنى لهم خلف الستار

وإن كنت أجد شيئاً من الابتذال فى قوله (ترك المجال لغيره) وأشعر بأن لفظ (مع) شديد القلق فى هذا الشطر : «ورأى النجاة مع الفرار» وهلا قال: ورأى الركون إلى الفرار . وهل يأذن لى حافظ فى ألا أحب « لقم الطريق » فى قوله

واجعل على لقم الطريق ضُوى تلوح لكل سار

وقد يكون اللفظ صحيحاً ولكن ليس كل صحيح جيداً ملائماً للغة الشعر . وأكبر ظنى أننا مدينون بهذا البيت كله للفظ السارى فهو قافية والسرى يستتبع الصوى والأعلام ، والصوى والأعلام تستتبع الطريق ولكنها لا تستتبع « لقم الطريق » وهل يغضب حافظ إذا لم أرتح إلى قوله :

عجل بها قبل « الفسا د » وقبل عادية البوار

وأنا أعلم أنه يطلب إلى الأستاذ لطفى السيد أن ينشر كتاب « السياسة » قبل كتاب الكون والفساد ، ولكن ألا يشاركنى حافظ فى أن ضرورات الشعر قد تكون منكرة أحياناً ، وفى أن التعبير بالفساد عن كتاب الكون والفساد ضرب من هذه الضرورات المنكرة ، ولكن أشد من هذه الضرورة نكراً (عادية البوار) التى جاءت لا أدرى لماذا ؟ أستغفر الله جاءت للقافية فآخرها راء ، وويل لشعرائنا من القافية!

وسواء أرضى حافظ أم غضب فسأقول ما فى نفسى ورزقى على الله ـ كما يقولون ـ ظن حافظ أن كتاب السياسة لأرستطاليس قد يعيننا على معالجة السياسة الانجليزية وحل المسألة المصرية ، ولهذا آثره على كتاب الكون والفساد وطلب إلى الأستاذ لطفى أن يقدمه وأن يستعجل فى نشره . ولم لا ؟ ألسنا متعجلين فى حل المسألة المصرية ، تتحرق أكبادنا ظمأ إلى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكن كتاب السياسة لا يقدم ولا يؤخر فى حل المسألة المصرية ، ولا فى فهم السياسة الانجليزية ، ولن ينتفع به الوفد الرسمى الذى سيعالج شامبرلين أو كرزن أو ماكدونالد ، كما أن الشيخ الجربى لن ينتفع بكتاب الأخلاق حين يريد أن يعظ المجرمين ، ولندع قصيدة حافظ إلى قصيدة نسيم .

* * *

ولكنى متهم حين أعرض لنسيم فقد تفضل بالثناء علىّ وأشار إلى أن لى نثراً يعجبه . على أنى سأكون حراً وسأغضب نسيما كما أغضبت صاحبيه فهو مثلهما ينتظر من كتاب الأخلاق ما ينتظران وما لم ينتظر أرستطاليس ولا لطفى ، وكما أن شوقى قد أخطأ حين قارن بين أرستطاليس والمسيح فقد

أخطأ نسيم حين ذكر هوميروس على أنه من شعراء المدح ، وحين تمنى أن يوفق لمدح لطفى شاعر كهوميروس ، فما كان هوميروس مادحاً ولا هو من أصحاب المديح وانما هوميروس وأصحابه أهل قصص واشادة بذكر الأبطال الذين انقضت عصورهم، فأما صاحب المدح من شعراء اليونان فهو بندار وتلاميذ وشعراء الاسكندرية خاصة ككاليماك وتيوكريت وغيرهما

وقد لا تخلو قصيدة نسيم من ملاحظات لفظية وتكلف من شأن القافية ، ولكنى أعترف ـ لالأن نسيم ذكرنى !... بأن قصيدة نسيم أقل تكلفاً من قصيدتى صاحبيه بل أعترف بشيء آخر أجل من هذا خطراً ، أعترف بأن فى قصيدة نسيم شيئا من الخفة لم يوفق اليه شوقى ولا حافظ وانظر إلى مطلع قصيدته :

شعر يزف بلا نسيب وبلا شكاة من حبيب
ما عيب مرقصة خلت من ذكر غانية لعوب

وفى هذا الكلام ـ على أنه عادى ـ شيء من الظرف والعذوبة ، وفى قصيدة نسيم شيء آخر ، وهو أن شخصيته ظاهرة مؤلمة مؤثرة ، فهو لم ينس ابنه الذى فقده ، ولم يكره وهو شاعر أن يتحدث بحزنه وبثه إلى ممدوحه وهو

فيلسوف ، وأحسب أن الأستاذ لطفى تأثره بهذه الأبيات من قصيدة نسيم أكثر مما تأثر بمدح نسيم وصاحبيه فأنا أعرفه حساساً رقيق النفس .

وفى قصيدة نسيم هذه الأبيات التى تقدمه على صاحبيه لأن فيها فكرة طريفة جريئة ، أليس يتمنى على جلالة الملك أن يكل تربية ولىّ العهد إلى لطفى مترجم أرسطاليس كما وكل فيليب تربية الاسكندر الى ارسطاليس :

ليت المليك وقد رأى ما فيك من خلق رحيب
يدلى اليك بناشىء فى حجر سدته ريب
تسقيه من نهى العلو م ووردها غير المشوب
وتريه فى ريعانه وضح المسالك والدروب
فهنالك الفاروق يصبح كابن فيلبس المهيب
يمشى بنورك فى الصبا ويشيد باسمك فى المشيب

أنا أقدم فى هذه المرة نسيما على صاحبيه .